القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

الاسرة الشيوعية

﴿الاسرة عند الشيوعيين﴾ تبتدىء فكرة التشيع في العلائق بين الذكر والانثى منذ ايام افلاطون ، ففي جمهوريته — وهي المدينة الفاضلة التي ذكرها الفارابي — ان السلم والنساء مشاعة في الامة ، وان المرأة يجب ان تشاطر الذكر العمل كما تشاطر الكلبة في القطيع الكلب حراسة الغنم . والمثل الاعلى الذي كان ينشده للمدينة الفاضلة السيدة هو ان تكون جميع العلائق الشقية خاضعة لسلطة الدولة ومحصورة في اناس يتحلون ببعض الصفات من حيث اعمارهم واهليتهم في الابدان والاخلاق والعقول وهو ما يؤدي الى علم له مقام رفيع بين العلوم الاجتماعية الحاضرة وهو علم « اليوجنيكس » أو اصلاح النسل

وعسى الا يستغرب القراء موقف افلاطون شيخ حكماء اليونان في شيوعية النساء ولا موقف من تابعه من متطرفي الاشتراكيين في العصر الحاضر . فان رواد الاصلاح في الشؤون الشقية كما قال (سبارجو) و (اورز)[1] قد سلكوا في معالجة قضية المرأة والرجل واحداً من سبيلين متناقضين كل التناقض الواحد تحريم الاتصال بين الجنسين بتاتاً والثاني التشيع في النساء ، ففي صدر النصرانية امتهنت المرأة وعدّ الزواج شراً مستطيراً ووصف بانه استسلام للطبيعة البهيمية وانهماك في الشؤون الحيوانية وان المثل الاعلى والكمال المنشود هو التبتل والرهبانية . على حين نرى طائفة (الشاكر) و (الوالدني) مثل (الاناباپتست) و (الكماليين) وغيرهم من الطوائف المسيحية ينحون نحو التشيع في النساء كأن تعقد موضوع الزواج والعيوب العالقة بجميع طرائقه المنتشرة ارغمت الباحثين على هذا التناقض في الاجتهاد ، وكان من شأن الاشتراكية المتطرفة انها حينما عالجت هذا الموضوع ايدت فكرة التشيع لاسباب بديهية تتعلق برأس المال ، فالاسرة في نظر الاشتراكية متعلقة اتصالاً وثيقاً بالتملك الخاص والميراث الاهلي بحيث يصعب الفصل بينها جميعاً ، فلا غرو ان يحسب الاشتراكيون المتطرفون كل زواج فردي او كل نظام عائلي مدعاة الى الاضلال والرجوع بالبشر الى سلطة الراسمالية التي هي في نظرهم علة العلل . والحرص على

(١) Elements of Socialism p. 241.

تخصيص الخلف بميراث السلف ظاهر في يومنا هذا حتى بين القبائل التي لا تعنى بالعرض كثيراً فقد كتب الي السيد نصوح الخرسا من (الساحل الذهبي) في افريقيا الغربية عن بعض القبائل يقول « اما العرض فغير معروف عندهم واذ احب العبد احداً من البيض قدّم له اخته او غيرها من اهله وذوي قرابته الا امرأته فانهُ يهتم لها لكن اذا تعدى عليها احد فانهُ يشكوه الى الحكومة ليحصل منهُ على صداقها ثم يتنازل عنها ، وبسبب هذا الاسترخاء الشنيع اذا مات العبد خلّف جميع ثروته لابن اخته لانهُ ليس واثقاً ان الولد الذي ولدتهُ امرأتهُ هو من صلبهِ ، اما ابن اختهِ فلا شك في نسبهِ مطلقاً ولهذا فهو الوارث الوحيد بين الاقارب »

واضاف الاشتراكيون الى حقدهم على التملك والميراث كرههم ان يروا الحكومة تاركة للافراد الحبل على الغارب يتزاوجون ويتوالدون من غير اشراف ولا قيد مما يعرّض الجنس البشري للانحطاط بسبب تزاوج المرضى والمعتوهين والمحروب والاوبئة والمجاعات بسبب تزايد النسل على وسائل المعيشة ومقوّمات الحياة

على ان اعلام الاشتراكية لم يحجموا عن الكيل للراسمالية الشنيع بالصاع واتهامها بانها هي تنسخ الزواج وتهدم الاسرة . فالطلاق كما قال (سبارجو) و (اوز) قد انتشر في النصرانية انتشاراً سريعاً حتى « لم يعد الزواج وضعاً امتن مما كان على عهد رومية في القرن الخامس . ونحن اذا اضفنا الى كثرة الطلاق انتشار البغاء اضطررنا الى القول ان الزواج الموحد لا يكاد يحسب الصفة البارزة التي تتصف بها علائقنا الشقية »(١)

ودلت الاحصاءات الرسمية التي ضبطت في الولايات المتحدة على ان عدد اذونات الطلاق بلغت في تلك البلاد في خلال عشرين سنة نهايتها سنة ١٩٠٦ زهاء ٩٤٥٦٢٥ يعني على معدل مائة وثلاثين طلاقاً في اليوم وقد وجد ان كل اربع عقود يتم الزواج فيها يفسخ واحد منها بالطلاق في كثير من الولايات ، ويمسّ نحو الثلثين من اذون الطلاق للنساء بحجة الهجر والقسوة غالباً لكن هذه اعذار مصطنعة يتحملها طلاب الطلاق من الجنسين ستراً للفضيحة والعار وليس في هذه الاحصاآت ما يدل على ان الغاية من الطلاق استبدال شريك بشريك آخر غالباً ، ومما يستوقف الانظار ويتطلب عناية الشرق كثيراً ان المقاضاة للحصول على الطلاق متى كانت نفقتها باهظة قلت من عزيمة طلابهِ وقللت من وقوعهِ . وهذا لعمر الحق يستحق انتباه المسؤولين في العالم الغربي لانهُ اذا زيدت نفقات الطلاق في محاكمنا زيادة معقولة بحيث لا يجعل الطلاق ميزة يتمتع بها الاغنياء فقط فالروابط الزوجية تكون امتن واسس البيت تكون اقوى على مقاومة الزعازع العائلية والعواصف الشقية

(١) Elements of Socialism, p. 244

﴿ البغاء ﴾ : هو الخطر الآخر على الزواج والاسرة وان كان بعض اهل البحث قد ذهبوا الى ان البغاء الرسمي هو حصن لاهل العفاف أو « صمام الامن » يفرج به الضغط الناشيء عن القوى البشرية الاندفاعية . وفي الاحصاءات التي اجريت في الولايات المتحدة في اوائل القرن العشرين ان عدد المومسات في تلك البلاد يناهز ثلاثمائة الف فيكون عدد الرجال الذين يحمونهن لا يقل عن ثلاثة ملايين ومما لا شك فيه ابداً ان الاحوال بعد الحرب ساءت في هذا الموضوع اضعافاً مضاعفة وان هذا العدد العديد من النساء البغايا هو ضئيل جداً بالنسبة الى الوقت الحاضر وقد سمعت خطيباً مشهوراً في نيويورك في سنة ١٩٢٤ ينحو باللائمة على الحرب ويقول ان زيادة الفحش اتت الاميركيين من نزول جيوشهم في فرنسا وتعودهم عادات اهلها . ولم يحجم الاشتراكيون عن اتهام الرأسمالية بانها علة العلل في هذا المرض الاجتماعي الخبيث . ففي كتاب « الاصول الاشتراكية »(١) انه لا مفر لنا من الاعتراف بأن الفقر هو من اهم البواعث على بيع الاعراض ، وان نسبة النساء من اهل الاجور الزهيدة اللاء يمرن فواحش هي نسبة عظيمة جداً ، وكما اصيبت الاسواق التجارية بالغرار بعد الثروة أو بالكساد بعد الرواج ازداد عدد البغايا . والمحنة قوية جداً كما قال (برناردشو) على البنت الجميلة التي ترى انها اذا باعت قواها العقلية للخدمة في المكتب أو المصنع لا ترجع عشر ما ترجعه اذا هي باعت جمالها ففي تلك الحالة لا تحصل على غير الكفاف من العيش غالباً واما في هذه الحالة فقد تكون القصور والسيارات والبواخر والمصارف طوع بنانها

اضف الى ذلك ما تسببه الفاقة واكتظاظ السكان في الامكنة القذرة واختلاط البنات والصبيان في المعامل مع الاحداث والبالغين من الاسترخاء في الاخلاق والانحطاط في البنية

﴿ حملة الاشتراكية المتطرفة على الاسرة ﴾ : يقول الاشتراكيون ان حملتهم الشعواء ليست موجهة الى الزواج والاسرة بل الى سوء الاستعمال فيهما في عصر الرأسمالية فكل زواج لا يقوم على الحب بل يعقد لاجل المال او المكانة والجاه هو في نظرهم سفاح مستور مشروع يجب ابطاله مع سائر انواع الفحش . وفي البيان الشيوعي الذي اصدره (ماركس) و(انجلس) ان البغاء بانواعه ، البغاء الخاص والبغاء العام ، البغاء المشروع وبيوت الخنا كل ذلك يتلاشى في عصر الاشتراكية وزوال سلطة الرأسمالية ، حينئذ ينشأ في العالم جيل جديد بالغ راشد مؤلف كما يقول (انجلس)(٢) من رجال لم تسنح لهم فرصة في العمر يشترون فيها بالمال او بغيره من الوسائل الاقتصادية استسلام المرأة لشهواتهم وجيل من النساء لم تسنح لهن فرصة في العمر

(١) Elements of Socialism, p. 246.
(٢) The Family Private Property & the State, Chap. III.

يستسلمن فيها لاي رجل لسبب من الاسباب غير الحب او يرفضن هذا الاستسلام لئن يجبهن خوفاً من العواقب الاقتصادية

وقصارى القول ان الاشتراكيين الاقحاح يصرّون على القول بأن ليس اعداء الزواج ولا خصوم الاسرة بل هم اضداد ما تولده الرأسمالية فيها من سوء الاستغلال

***

لكن الخطة التي سارت عليها حكومة السوفيت الروسية لا تدع مجالاً للشك في مذهب الشيوعية في القضية الشقية . ففي بلاد الروسيا اليوم لا يوجد — امام القانون — زواج او اسرة بالمعنى المفهوم ، وان وجدا فبقوة العادة والاستمرار ، لان المرأة التي تسجل اسمها في الحكومة انها زوجة زيد من الناس اليوم يحق لها بعد مدة معينة اذا شاءت ان تذهب الى دائرة الحكومة فتسجل اسمها انها زوجة بكر او خالد وما ينطبق على المرأة ينطبق على الرجل طبعاً . والوجه الجديد في هذه الطريقة — وهو ما يختلف عن الطريقة القديمة المألوفة — هي المساواة التامة في الحرية والاختيار بين الرجل والمرأة

وعلاوة على ذلك فحكومة السوفيت قد فتحت مستوصفات عمومية في الحواضر الكبرى يؤمها الحوامل للاجهاض . واعتبرت الاطفال بعد بلوغهم السنة الثانية من العمر ملكاً للدولة

ومما هو حري بالتدوين ان هذا الانقلاب المتطرف في الافكار لم يخل من تأثير في القضاء ولو كان في بلاد محافظة كالبلاد الانكليزية . فقد اشتهر قرأنا في البرقيات العمومية حديث الاجهاض وتجاوز القاضي عن المجهض وجاء في قضية الجندي (جون بلاس) وزوجته (جندلين رسل) وحبيبها الدكتور (شارل فردريك سيرل) وهي قضية طلاق بسبب هذا الحب ظهرت في المحاكم الانكليزية في شهر مارس الماضي ان قال الماضي المستر (ماكاردي) في الرد على المحامي عن الزوج ان السيدة (بلاس) حرة بيبح القانون الانكليزي لها الخروج من المنزل متى شاءت وان المرأة المتزوجة لها اليوم مطلق الحرية في ترك زوجها متى شاءت . فلما اعترض المحامي بقوله ان القانون الانكليزي يبيح للرجل المتزوج ان يقول لزوجته « عليك ان تمكثي معي » اجابه القاضي مستنكراً « وهل تقصد ان تقول ان للزوج في الوقت الحاضر ان يغلق على زوجته باب غرفتها ويقول لها انه سيبقيها فيها ؟ .... انك تسعى لتعزيز الرأي القائل اذا خرجت الزوجة لمأدبة عشاء او سافرت لقضية نهاية الاسبوع مع صديقة لها رغم ارادة زوجها فان الضرر — بالمعنى القانوني — يقع لانها لم تحصل على موافقته ورضاه . ولكن هذا يجعل المرأة المتزوجة اسيرة .... واذا كان هذا رأيك فاني لا ارى ما هي الحقوق التي تتمتع بها المرأة المتزوجة اليوم .... واذا كان البيت ملكاً للزوجة كما هو الحال في قضية السيدة

(بلاس) فلها ان تخرج منه لا الغرباء فقط بل زوجها ايضاً »

﴿ استقلال المرأة عند الاشتراكيين ﴾ : يراد باستقلال المرأة ان تحصل على رزقها بعرق جبينها خارج حلقة الاسرة الا في وقت حملها ووضعها وهو سنة كاملة يسلم الطفل في نهايتها الى روضة الاطفال ، حيث يهيأ الطعام في مطبخ عام ويتم التنظيف على ايدي اخصائيين وتعتني الممرضات والمعلمات بالاطفال منذ الشهر السادس من اعمارهم الى ان يذهبوا اما الى المدارس الكلية او الى دور العمل والصنعة ، والمطلوب ان يكون اليوم المدرسي مطابقاً لليوم العملي فيخرج الآباء والابناء من بيوتهم ويرجعون اليها في وقت واحد . والمطلوب بحسب هذا المنهاج تحرير المرأة من اتعاب الاسرة وتحقيق استقلالها عن الزوج باشتغالها للحصول على الكسب وهذا كله يؤدي في آخر الامر الى الحيلولة دون اجتماع افراد الاسرة الاجتماع الكافي الذي يقوي اواصر المحبة والعطف بينهم ثم الى ابطال البيوت الخاصة والمعيشة الاجتماعية العائلية

ويحتج انصار هذا المذهب لمذهبهم ببرهانين اثنين الواحد اقتصادي والآخر بيولوجي حيوي . اما الاقتصادي فما يزعمونه من التوفير الذي يتم بالمطابخ العمومية والخدمات المشتركة واما البيولوجي فما يظنونه من ان تعليق المرأة على الرجل في حياتها وشؤون معيشتها اكسبها هذا الضعف وجعلها شبيهة بالطفيليات مما لا نجد له شبيهاً في عالم الحيوان حيث الانثى مثل الذكر تحصل على رزقها بكدها وتقوم بأود اولادها بسعيها

***

بيد ان الخطأ في البرهان الاقتصادي هو ان التوفير الذي تظن به الاشتراكيون امر مشكوك فيه كثيراً واما البرهان البيولوجي فجوابه ان المرأة لا تشبه الاناث في الحيوانات فهي لا تلد الاولاد وتتركهم وشأنهم بل تستمر في تربيتهم الى ان يعتمدوا على النفس وهذا ما يحتم عليها الالتجاء الى الرجل وطلب معونته

واذا كانت ثمة امرأة لم تخلق للزوجية والامومة فليس من الضروري كما قال الاستاذ (بابندر) ان تنزل الى ميدان الصراع العملي بل هنالك بعض صفات في مثل هذه المرأة يعزها المجتمع ويحتاج اليها وهي صفات لا تثمن بالمال.. واذا ارادت سيدة من اهل المواهب ان تجرب مواهبها فلا بأس ان تطرق انواع الابواب التي فتحت امامها في العصر الحاضر ، فالآنسة (هرشل) والسيدة (سمرفيل) و (كولستانس) و (نادن) و (سوفيا كوالفسكي) هن في الرياضيات مثل (مدام كوري) في الطبيعيات وغيرها وغيرها في التاريخ والادب والفن والتعليم آيات محكمات

على ان مسألة النساء انلاء خلقن للزوجية والامومة وهن الاكثرية العظمى يجب ان تسوى[1] (اولاً) بتقدير الامومة قدرها وطبع كلام الاستاذ (بايندر) في الاذهان وهو اذا كان المطلوب حفظ القوم وان يتمتعوا باسباب التقدم ، واذا كانت تنمية الشخصية هي الغاية الكبرى في الحياة ، واذا كانت هذه الغاية لا تتحقق الا في الاسرة فالام هي الفرد اللازم في المجتمع وذلك لانها تحمل العالم بمنحة نادرة وعطية سنية مؤلفة من العناصر الخاصة على هيئة خاصة من الجمال النادر . (ثانياً) باهمال ذلك البحث السخيف عن أيهما اعظم شأناً المرأة ام الرجل وما يجر هذا البحث المبني على النظريات البالية من استياء فضليات النساء ، فالمرأة والرجل عنصران يتمم الواحد منهما الآخر في تكوين المجتمع كايتم الهيدروجين الاوكسيجين في تأليف الماء ولا يوجد كياوي مهما كان سخيفاً يصرف قواه العقلية في المفاضلة بين هذين العنصرين . واذا كان الرجل رأس البيت فالمرأة قلبه ومن المحال ان يعيش مخلوق من غير هذين العضوين الجوهريين (ثالثاً) بتنظيم الموارد المالية تنظيماً يسمح للزوجة ان تنال قسطاً من ارباح زوجها كافياً . وغير تكبرانها في بعض الاحيان تستولي على جميع موارده او انها لا تنال شيئاً الا اذا هو تفضل عليها وتكرم بما يعده منحة ، وهاتان طريقتان فاسدتان لان الرجل الذي يعيش (بخرجية) من زوجته لا يكتسب احترامها كثيراً والمرأة التي تعيش بالمنحة من زوجها ولا تستأمن على شيء هي كالطفل في نظره (رابعاً) بتزويد المرأة بالتربية العلمية التي تؤهلها للاستقلال الاقتصادي قبل زواجها حتى لا تكون عبئاً على اهلها ولا تتواقع بسبب الحاجة على كل خطيب صادفتهُ ، وللامومة بعد ازواج حتى تؤدي الامانة التي خلقت لها في الدرجة الاولى

***

ويسرني ان انهي هذا المقال عن قضية المرأة والرجل بما ذهبت اليهِ السيدة (الن كي) وهي من اشهر من كتب في هذا الموضوع ، فقد ذهبت الى وجوب حصر الاعمال النسوية في منطقة معينة تنطبق كثيراً على روح كلامنا فهي تريد المرأة ان تتصرف بكليتها الى خدمة الحياة العائلية ولا تكتفي فقط بالرضى بقلة الخدم والحشم بل ان تطردهم من عندها لتوقف نفسها على خدمة ابنائها واقرب الناس اليها وان تكون الامومة قطب الدائرة في حياتها وان ينحصر عملها فيما ينمي ابناءها ويكسبهم قابلية وهكذا تصبح شخصية سامية ذات قوة ونفوذ باحترافها اهم حرفة اجتماعية تمارسها بالفهم والنباهة ، وتكون قد زودت العالم بالهم ما يحتاج اليهِ — زودتهُ بالرجال والنساء الاصحاء النافذين الذين لا يعتمدون على شيء سوى انفسهم

(١) Major Social Problems p. 96.